

دور السودان القديم في إثراء الحضارة الإنسانية

قراءة للسجل الآثاري

قسم الآثار كلية العلوم الإنسانية
جامعة بحري

أ.د. عبدالرحيم محمد خير

مستخلص :

لعب السودان القديم دورا مهما في تطور الحضارة الإنسانية. وإجترح السودان العديد من المنجزات الفكرية والتقنية في العالم القديم لعل من أبرزها ابتداع نظام الكتابة الأبجدية (الخط المروى الإختزالي)، إختراع الفخار و صهر و تصنيع الحديد . وأثبت الشاهد الأثري بكل تفصيلاته أن السودان القديم هو أول البلدان الإفريقية التي صنعت الفخار (7500 ق.م). ولا ريب أن معرفة قدماء السودانين المبكرة لتقنية الفخار في الألف الثامن قبل الميلاد و خاصة عملية التحكم في درجة الحرارة و استخدامها الأمثل بواسطة الأفران مكنتهم لاحقا من الإستيعاب السريع لتقنية المعادن (النحاس و الحديد) و الإستفادة منها في شتى مناحي الحياة. و تجدر الإشارة إلى أن مملكة مروى السودانية هي أول دولة في أفريقيا إستطاعت أن تقوم بعملية تعدين و صهر و تصنيع الحديد(القرن السادس عشر قبل الميلاد) إستنادا إلى التواريخ التي تم الحصول عليها بواسطة كربون 14 المشع، فضلا عن الأدلة المادية المتمثلة في المصنوعات الحديدية المتنوعة و الكميات الضخمة من نفايات الحديد التي عثر عليها في أمكنة متفرقة من البلاد . ويحاج هذا المقال -إرتكازا على أسانيد أثرية- بتفرد السودان ريادة و تطورا في المجالات الفكرية (الكتابة) و التقنية (صناعات الفخار و الحديد) التي تقف شاهدا على تاريخه المجيد في أفريقيا و العالم القديم.

The Role of the Ancient Sudan in Enriching Human Civilization: A Perusal of the Archaeological Record

Prof. Abdelrahim Mohamed Khabir Hassan

Abstract:

Ancient Sudan played an important role in the development of the human civilization. Of the most outstanding Sudanese contributions in the intellectual and technological development of the Old World, were writing (Meroitic Inscriptions), invention of pottery and iron-working. It has been evident that ancient Sudan was the first place in Africa where pottery was manufactured (ca. 7500 B. C). The expertise acquired by ancient Sudanese (Kushites) as a result of long experimentation with the pyrotechnology of pottery (ca. 7500-3000 B C) and copper (ca. 2500-1500 BC.) warrants their rapid Inception of metallurgy. The assumption that the Kushite (Meroitic) Kingdom being the first state in Africa where iron was smelted and manufactured has been confirmed not only by radiocarbon dates but also by well-established industry in comparison with the contemporary African countries. These achievements culminated by the acquisition of local alphabets (1800-700 B.C.) the meaning of which, in most instances, remains a mystery. This paper argues for the pioneering cultural achievements of the ancient Sudan and hence enlightening us about its glorious history which stands as a major landmark in Africa and the Old World.

مقدمة:

لعب السودان القديم دوراً مهماً في تطور الحضارة الإنسانية وإجترح السودانيون العديد من المنجزات الفكرية والتقنية في العالم القديم لعل من أبرزها إبتداع نظام متقدم في الكتابة الأبجدية (الخط المروى الإختزالي) إختراع الفخار وصهر وتصنيع الحديد. وأثبت الشاهد الأثري بكل تفصيلاته أن السودان القديم هو أول البلدان الأفريقية التي صنعت الفخار (7500 ق.م). ولا ريب أن معرفة قدماء السودانين المبكرة لتقنية الفخار في الألف الثامن قبل الميلاد وبخاصة عملية التحكم في درجة الحرارة وإستخدامها الأمثل بواسطة الأفران مكنتهم لاحقاً من الإستيعاب السريع لتقنية المعادن (النحاس والحديد) والإستفادة منها في شتى مناحى الحياة. وتجدر الإشارة إلى أن مملكة مروى السودانية هي أول دولة في أفريقيا إستطاعت أن تقوم بعملية تعدين وصهر وتصنيع الحديد. (القرن السادس عشر قبل الميلاد) إستناداً إلى التواريخ التي تم الحصول عليها بواسطة كربون 14 المشع فضلاً عن الأدلة المادية المتمثلة في المصنوعات الحديدية المتنوعة والكميات

الضخمة من نفايات الحديد التي عُثر عليها في أمكنة متفرقة من البلاد (الخارطة: شكل 1). ويحاج هذا المقال- إستناداً على أسانيد أثرية بتفرد السودان -ريادة أو تطويراً - في المجالات الفكرية (الكتابة) والتقنية (صناعات الفخار والحديد) التي تقف شاهداً على تاريخه التليد في أفريقيا والعالم القديم .

شهد السودان القديم ظهور العديد من الحضارات التي أدت أدواراً مهمة في مسار الحضارة الإنسانية منذ فجر عصر ما قبل التاريخ في وادي النيل والعالم القديم. وعرف السودان الدولة كبنية سياسية مؤسسية ومشروعية سلطة منذ ما يربو على أربعة آلاف عام بظهور دولة كوش الأولى (مملكة كرمة) التي بسطت ظل سلطتها على شمال السودان الحالي وكل منطقة النوبة (2500- 1500 ق.م) وفي عهد دولة كوش الثانية (مملكة مروى) (900 ق.م - 350 ق.م) بلغت الدولة السودانية أقصى اتساع لها حيث كانت تمتد في أوج ازدهارها من شواطئ البحر الأبيض المتوسط (مصر) شمالاً إلى ضفاف النيل الأبيض (الكوة) والنيل الأزرق (جبل موية) جنوباً. ورفدتنا الحفريات الأثرية بمعلومات ثرة عن المنجزات الحضارية التي إجتريها السودانيون والتي شملت تقنيات الفخار والمعادن (النحاس والحديد) وفنون النحت والعمارة والموسيقى وغيرها. وتوجت هذه المساهمات الحضارية بالمعرفة الباكورة لنظام متقدم في الكتابة الأبجدية (الخط المروي الإختزالي). ولا يتسع هذا الحيز للحديث بإسهاب عن كل هذه الإنجازات ، لذا ستقتصر هذه الدراسة على تلك الإنجازات الفكرية والتقنية التي تفرد بها السودان ريادة أو تطويراً خلال أحقاب متباعدة من التاريخ. ويحاج هذا البحث- إرتكازاً على أسانيد أثرية -بأسبقية السودان القديم في مجال التقانة كما يظهر ذلك جلياً في صناعة الفخار وصهر وتصنيع الحديد في أفريقيا. وفضلاً عن ذلك، إبتكر قدماء السودانيون نظاماً متقدماً للكتابة الأبجدية يضاهاى في درجة تطوره ما توصلت إليه الحضارات المعاصرة وقتذاك في أفريقيا والشرق الأدنى القديم. وسإبتدر هذا البحث بعرض للمنجزات التقنية (التطبيقية) للحضارة السودانية والتي كنظيراتها من حضارات الشرق القديم قد بدأت إبداعها العلمي بالإستخدام العملي للتقنيات الموروثة قبل الإهتمام إلي المعارف الفكرية أو النظرية. والرأى عندي أن أهم إنجازات الحضارة السودانية التقنية هي إختراع الفخار وصهر وتصنيع الحديد في حين أن أبرز منجزاتها الفكرية هي التعرف على الكتابة الأبجدية.

صناعة الفخار:

لعل من أهم الدوافع التي أدت إلي إختراع الأواني الفخارية في عصر ما قبل التاريخ كماهو معلوم الحاجة الماسة لها للطهي الجيد للطعام بالغليان، وذلك بالتحكم في مقدار الحرارة واستغلالها بصورة مثلى وبأقل جهد ممكن مقارنة باستخدام آنية مصنوعة من مواد أخرى مثل الحجارة أو المعادن ونحو ذلك. ومن جهة أخرى ، فإن الفخار يعتبر من أكثر المواد تحملاً وأطولها عمراً مقارنة بمواد أخرى استخدمت في صنع الأواني في العالم القديم مثل الأخشاب والجلود. وجدير بالذكر أن من أقدم الأدلة الموثوق بها عن معرفة الإنسان للفخار أمداً به موقع ناتسوس في

إقليم هوكايدو في اليابان ويؤرخ إلي 9500 قبل الوقت الحاضر. (Wendorf and Schild 1984:140). ويعتبر موقع السروراب 2-شمال الخرطوم من أقدم المواقع الأثرية في العالم القديم التي عرفت هذه الصناعة، وأقدم موقع في أفريقيا والشرق الأدنى القديم يحتوى على مصنوعات فخارية قبل 10.000 عاماً من الوقت الحاضر (Khabir 1985: 40). وقد قام بتنقيب هذا الموقع الذي يقع ضمن مشروع جامعة الخرطوم للحفريات الآثارية بشمال أمدردمان كاتب هذه السطور عام 1978م حيث شكل جزءاً أساسياً من دراسته لفخار عصر ما قبل التاريخ في أواسط السودان باستخدام المنهج العلمي الفيزيائي والكيميائي. وأماطت الحفريات في هذا الموقع اللثام عن أشتات كثيفة من الكسر الفخارية، فضلاً عن كميات وافرة من الأدوات الحجرية والبقايا العظمية وبعض الرخويات (لوحة:1).

مجموعة الفخاريات التي تم العثور عليها في هذه المستوطنة كانت كسراً بأحجام وأشكال مختلفة. ويبدو أن معظمها لأوان مفتوحة تشمل الطاسات وقدر الطبخ ويزدان معظمها بزخارف على هيئة نقاط (Dots) أو حزوز أفقية خفيفة. (Impressed Patterns) ومن أبرز الزخارف ذات الأهمية الكرونولوجية الزمنية الحزوز المتموجة المتصلة (Wavy Lines) التي وجدت بوفرة وتتركز في الطبقات المبكرة للموقع وهناك فخاريات متنوعة ترجع للعصر الحجري الحديث بالسودان (لوحة:2). وتظهر الفخاريات المتموجة الزخارف تشابهاً لصيقاً في أماطها بتلك النماذج التي وجدت في مناطق متباعدة في وادي النيل والبحيرات الاستوائية وفي شمال أفريقيا وغربها (أنظر أدناه). ولعل من أهم نتائج التنقيب في موقع السروراب 2- الحصول على تاريخين بركيون 14 المشع لبعض الطبقات التي تحتوى على معثورات تشمل كسراً فخارية أبرزها النماذج ذات الزخرفة المتموجة المميزة لحضارة الخرطوم الباكرا (Early Khartoum Culture)، علاوة على أدوات حجرية وعظمية ومواد عضوية. ويشير التاريخ المعطى للطبقة العلوية للمربع رقم 37 (30 تحت مستوى سطح الأرض) إلي حقبة زمنية تصل إلي 7380 ± 90 سنة قبل الميلاد، في حين يصل عمر الطبقة السفلية (50) سم تحت مستوى السطح الحالي إلي حقبة تصل إلي 7420 ± 80 سنة قبل الميلاد. (Khabir 1987: 378). وقام

بمعايرة (تصحيح Calibration) هذين التاريخين الزميل الأستاذ الدكتور أزهرى مصطفى صادق (الأستاذ بقسم الآثار جامعة الخرطوم) بالمانيا (جامعة هامبورج) قبل عقد من الزمان. ودفع تصحيح التاريخ الأقدم ترمين الموقع إلى الألف التاسع قبل الميلاد ($Cal. 8652 \pm 165$ B.C.) (Sadig 2012:139). ويجدر التنويه بأن أكثر مواقع الفخاريات قدماً في أفريقيا والشرق الأدنى القديم كما هو جلى من نتائج كربون 14 المشع تشمل موقع تننورها (الصحراء الليبية) ويؤرخ للفترة بين 6980 - 7400 ق.م ونبته - بلايا (الصحراء الغربية المصرية) ويقع بين 6240 - 5700 ق.م وموقع كهف قمبرل في منطقة البحيرات الإستوائية واستمر خلال الحقبة بين 6650 - 6160 ق.م (Khabir 1981: 196-200). وتلزم الإشارة

هنا إلى أن أقدم مواقع الفخار في الشرق الأدنى توجد في إيران (قاندارج) حيث يؤرخ إلى حوالي 7000 ق.م وموقع كتال هيوك (هضبة الأناضول - تركيا) ويؤرخ إلى حوالي 6300 سنة قبل الميلاد. (Wendorf and Schild 1984: 410). وبإلقاء نظرة فاحصة على ما تم إيراده آنفاً يمكننا ترجيح الإحتمال بأن منطقة الخرطوم كانت مهد صناعة الفخار في أفريقيا والشرق الأدنى القديم سيما وأن أقدم مواقع حضارات الفخار في تلك المناطق ذات تواريخ تقل بدرجة ملحوظة عن موقع السروراب 2 - في إقليم الخرطوم. وتطورت صناعة الفخار بشكل لافت للنظر خلال العهود المختلفة للحضارة السودانية. ووصل الفخار السوداني في عهد دولة كرمة (2500-1500 ق.م) مستوى رفيعاً من حيث الصنعة والحرق والتشكيل والزخرفة. ويعتبر فخار حضارة كرمة من أجود أنواع الفخار في أفريقيا والشرق القديم. ويضاهى هذا الفخار نظيره المصري المعاصر. ففي مصر الفرعونية لا نجد للفخار مكانة كبيرة، ربما لتوفر المواد البديلة أو الأعلى قيمة الحاكم وبونيه (1997: 221-222). (لوحة 3: 3). وفي عهد دولة مروي (900 ق.م-350 م) بلغت صناعة الفخار شأواً كبيراً حيث أنتجت مروي فخاريات متميزة تعتبر من أجود ما عرفه العالم القديم من الفخار اليدوي والمصنوع بالدولاب (العجلة). وضم الفخار المروي أشكالاً عديدة يأتي بعضها على هيئة أواني القرع والمعروفة حالياً في غرب السودان باسم "البخسة". ومن أبرز الخزاف تلك التي على هيئة حوزوز ضحلة أو غائرة ومحشوة بمادة جيرية بالإضافة إلى الأنماط المطلية والمزينة أحياناً بزخارف على هيئة أوراق الكرم. (Shinnie 1971: 114) (لوحة 4: 4). وفي العهد المسيحي (543-1504م) حافظت صناعة الفخار السوداني على مستواها التقني الرفيع بفضل الاستخدام الواسع لعجلة الخزاف. وبرزت في هذه الفترة أنماط جديدة ومتنوعة من الآنية، ففي الفترة المبكرة لهذا العهد نلاحظ أن أشكال الفخاريات تغلب عليها الجرار والطاسات ذات القواعد العادية وذوات الأرجل كما تتميز بزخارف هندسية ومطلية ومختومة. وفي الفترة الكلاسيكية، ظهرت -إضافة إلى الأشكال السابقة -الزمميات والدوائر والأطباق والكاسات بشكل لافت للإنتباه واستمرت العديد من الخزاف للفترة المبكرة لا سيما الزخرفة المطلية. أما في الفترة المتأخرة فنجد أن معظم أشكال الفخار تضم أكواباً وطاسات خالية من الخزاف (Adams 1986: 473). (لوحة 5: 5). وأمدتنا المواقع الإسلامية بأنواع متميزة من الفخار يغلب عليها الطابع المحلي، وهي جيدة الصنع ومتأثرة بتقاليد متوارثة. بيد أننا نجد ضمن هذه الموجودات نذراً يسيراً من الخزف الأصفر المزجج الشهير الذي ظهر في بعض المواقع على ساحل البحر الأحمر السوداني كما عثر على ما يماثله في عدة مواقع إسلامية في مصر أبرزها القاهرة "الفسطاط" وفي شرق أفريقيا وبعض المواقع بظفار في سلطنة عمان. وعلاوة على ذلك، تم العثور على متفرقات من الخزف الصيني وموجودات أخرى (أواني زجاجية ونقوش) وهي تومئ إلى صلات تجارية وحضارية بين السودان القديم وحضارات الجزيرة العربية والشرق الأدنى القديم (Kawato 1993: 203). (لوحة 6: 6).

صناعة الحديد:

عرف السودان القديم (كوش) صناعة الحديد منذ فترة باكرة القرن السادس قبل الميلاد حيث أثبت الشاهد الأثري بكل تفصيلاته أن مملكة مروي (900 ق.م - 350م) هي أول دولة في أفريقيا استطاعت أن تقوم بعملية تعدين وصهر وتصنيع الحديد . وكان للحفريات التي قام بها جارستانق Garstang - ووصف نفايات الحديد في مروي بواسطة الباحث سايس (1912م -) - Sayce القدح المعلى في كشف النقاب عن الدور البارز الذي لعبته دولة مروي في تعدين وصهر الحديد في أفريقيا . وفي عام 1940م قام عالم الآثار الإنجليزي أ.ج آركل A.J.Arkeell - يرافقه الكيميائي أ.لوكاس A. Lucas - بعمل مجسات إختبارية في مدينة مروي القديمة بغية تسليط مزيد من الضوء على طبيعة نفايات الحديد والمصنوعات الحديدية التي عثر عليها في المدينة. وخلصت هذه الإختبارات إلي نتيجة مفادها أن هناك أكواماً عديدة من النفايات والأدوات الحديدية حول مروي كما أن معبد الأسد (مُرة 6) للمعبود المحلي أباد أماك قد بنى فوق تل من نفايات الحديد. ولا ريب أن هذه الأدلة تدعم الحاجة القائلة بمحلية صهر وتصنيع الحديد في السودان القديم (كوش) (خبر: 20043). (لوحة : 7) . وأبانت التنقيبات الأثرية أن مراكز صهر وتصنيع الحديد في دولة مروي قد انتشرت في مناطق متفرقة تمتد من الشلال الأول شمالاً إلي منطقة جبل موية في إقليم النيل الأزرق جنوباً . وفي موقع جبل موية عثر على كميات غير قليلة من الأدوات الحديدية ضمت أسلحة متنوعة وخلاخيل وأسورة وأقراطا تؤرخ للفترة الوسيطة والمتأخرة من العهد المروي (القرن الرابع - القرن الأول قبل الميلاد) . وتجدر الإشارة إلي أن مراكز تصنيع الحديد في السودان القديم لم تقتصر على المراكز الحضرية بالقرب من النيل بل شملت بعض المناطق البعيدة داخل البلاد مثل جبل الحرازة (كردفان) ومواقع جبال طقابوسي وسمياط (دارفور) . وتؤرخ هذه المواقع بواسطة كربون 14 المشع إلي مطلع الألف الأول الميلادي . وتعصد نتائج هذه الحفريات مقولة الباحث ويزايت Wainwright - بأن الأدوات الحديدية وصلت السودان من بلاد المغرب عبر الصحراء الكبرى الأفريقية (5: 1945 Wainwright) - . (35) . ويعتقد هذا الباحث - مثل العديدين من علماء الآثار - أن مصدر الحديد في أفريقيا هو بلاد الشام حيث جلب الفينيقيون هذه التقنية من بلاد الأناضول (بدأ تعدينه في الألف الثانية قبل الميلاد) ومن ثم نقلوها لاحقاً إلي شمال أفريقيا (بلاد المغرب) . وأبانت نتائج المكتشفات الأثرية أن الحديد في دولة كوش الثانية (مروي) إستخدم في صناعة أنماط متنوعة من الأدوات أبرزها أسلحة (سهام، حراب، فؤوس وسكاكين) وآلات زراعية (معاذق ومجارف) وملاقط وأزاميل وأدوات جراحية مجلفنة لحمايتها من الصدأ. ومما ساعد على إزدهار صهر وتصنيع الحديد في مروي القديمة توفر خاماته في جبال الحجر الرملي النوبي حول المدينة الملكية ، فضلاً عن وجود كميات غير قليلة من الأخشاب اللازمة لإيقاد أفران الصهر (147: 1961 Arkeell) . (لوحة : 8) . ويجدر التنويه إلي أن نظرية صهر الحديد في مروي قد وجدت ما يعضدها من الأدلة الأثرية حيث عثر علماء الآثار على كميات ضخمة

من نفايات الحديد لا تزال ماثلة حتى الآن حول المدينة الملكية بالإضافة إلى كميات كبيرة من عجيرات عقد (الحديد الصدئ) والذي يتكون بشكل أساسي من معدن المغنتيت (أكسيد الحديد الأسود) وأعداد وافرة من أفران الصهر والمنافخ وأنابيب النفخ الفخارية. ولعل الباحث البريطاني سايس A.H.Sayce - كان محققاً عندما أطلق عبارته الشهيرة «مروي برمنجهام أفريقيا» (Sayce 1912: 53). (65). ومما سلف إيراده، فإن بعض الإهرامات الملكية المروية وبعض المعابد قد بنيت فوق ركامات من خبث الحديد. ويشير الشاهد الأثري إلى أن أول قبر ملكي وجد فيه دليل للحديد في دولة مروي هو قبر الملك تهراقسا (690-664 ق.م)، كما وجدت أدوات حديدية في مقابر كل من الملك حرسيتوف 404-369 ق.م) والملكة أمانى-شخيتي التي تؤرخ للنصف الثاني من القرن الأول الميلادي (93-92: Shinnie 1971). ولكن بما أن كل المقابر الملكية المروية منهوبة حيث امتدت إليها يد العبث، فقلة الحديد وأحياناً ندرته في العديد من المقابر الملكية ليست دليلاً كافياً بأن هذا المعدن كان نفيساً في تلك الحقبة من العهد المروي. وتأسيساً على ما سبق، يبدو أن مروي القديمة كانت مركز صناعة الحديد في وادي النيل الذي إنداحت منه أسرار هذه التقنية لتصل أقاليم عديدة من أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى لا سيما وأن أقدم مواقع صناعة الحديد في أفريقيا في تلك البلاد (موقع تاروجا في نيجيريا ومواقع KM2&KM3 في شمال تنزانيا ذات تواريخ حوالي القرن الخامس قبل الميلاد) (تقل نسبياً عن موقع مروي (القرن السادس قبل الميلاد) في أواسط السودان (خبير: 2005: 14). ورغم أن الأدلة الأثرية تشير إلى زيادة مضطردة في تقنية الأدوات الحديدية في الفترة المتأخرة من دولة مروي مقارنة بعصورها الباكورة (20: Shinnie and Kense 1982)، إلا أن ذلك الزخم في تقنية الحديد لم يترافق مع تغيير جوهري في البنية السياسية والاجتماعية للدولة المروية. ويبدو أن مرد ذلك يكمن في أن تقنية الحديد المروية كانت مشروعاً حديثاً لم يتوفر له الإطار المعرفي الكافي والنسق الاجتماعي والإقتصادي المؤاتي الذي يسمح بتوطينه في السوية الثقافية للمجتمع السوداني آنذاك. ومن جهة أخرى، أدت الأحداث السياسية العاصفة التي حلت بدولة مروي في آخر عهدها وما رافقها من تداعيات في شتى المجالات إلى تقويض ذلك المشروع التقني فلم يتحول إلى مشروع نهضوي يفضي إلى تغيرات جذرية في بنية المجتمع السوداني حينها.

الأبجدية المروية:

إبتدع الكوشيون (قدماء السودانين) الأبجدية المروية الخط الإختزالي (cursive) التي تعتبر أحد الأشكال المتطورة للكتابة في الشرق الأدنى القديم. ولا يعرف على وجه الدقة متى كتب السودانيون باللغة المروية لأول مرة ذلك لعدم توفر المادة المكتوبة بصورة متصلة خلال أحقاب مختلفة للعهد المروي (900 ق.م- 350 م). وثمة إشارة هنا، وهى أن المعلومات المتوفرة لدينا عن الفترة ما بين القرنين الرابع والثاني الميلادي تقل فيها المخطوطات المروية بشكل واضح رغم أنها تعتبر من أهم مراحل تاريخ السودان الثقافي لأنها الفترة التي ظهر فيها الخط المروي وشهدت تغيرات ثقافية هامة، ولا يعرف ماهية هذه التغيرات وتطوراتها رغم معرفة حدوثها من نتائجها

وأهمها الكتابة المروية بخطيها الهيروغليفي والمختزل (عبدالله 1986م: 150-149). ونلاحظ أن أقدم شئ مكتوب باللغة المروية هو اسم الملكة شتاكداحين (Shanakdakhete 170-180 ق.م). أما أحدث النصوص المروية -الهيروغليفية فيرجع إلي زمن الملك تاركينوال- (Tarkiniwal 103-85م) والتي عثر عليها عند بوابة المقصورة المتصلة بهرمه رقم (19) في مروي القديمة (البجراوية). أما أقدم نص كتب بالخط المروي -المختزل هو نقش الملك تنييدمني (100-120 ق.م) وهو نقش طويل يتكون من 160 سطراً عثر عليه في معبد آمون (850) عند جبل البركل. (عبدالله 1986م: 152) (شكل: 2). ويبدو أن الضعف المضطرد الذي إعتري التواصل الثقافي بين مملكة مروي ومصر الفرعونية منذ أن تقهر السودانين عن مصر عام 663 ق.م ورغبة ثلة من المثقفين السودانيين آنذاك ببلورة هوية محلية، فضلاً عن فترات الحكم الأجنبي على مصر منذ ذلك الحين (الأشوريون والفرس والإغريق والرومان) والتي أضعفت مكانة اللغة الهيروغليفية، كانت كلها عوامل أفضت في نهاية المطاف (منتصف القرن الثاني قبل الميلاد) إلى إبتداع الأبجدية المروية بدلاً من الإعتماد الوحيد على اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية). وتفرعاً على ما تقدم، فإن المرويين قد ابتدعوا نوعين من الخط، أحدهما هيروغليفي رموز مصورة والآخر يسمى المختزل (Cursive) إصطلاحاً وكلاهما منحدران عن أصول مصرية، فالأول منحدر عن الكتابة الهيروغليفية والثاني منحدر عن الكتابتين الهيراطيقية والديموطيقية (عبد الله 1986: 86). ويتضح مما أوردناه أنفاً، أن اللغة المروية كانت لغة التخاطب لعامة الناس الذين تسموا بالأسماء المروية وتخابوا بها فيها بينهم. أما اللغة الرسمية، لغة الوثائق والتدوين فهي اللغة المصرية القديمة بخطها الهيروغليفي، فقد تخاطب بها أفراد الأسرة الحاكمة وموظفو الدولة وبعض المتعلمين المرويين. ويجدر التنويه إلي أن الشواهد اللغوية المتواترة تشير إلي وضع لغوي مركب إبان العهد المروي. ومن المؤكد أنه رغم أن اللغة الأكثر تداولاً كانت هي اللغة المروية، فهناك أيضاً لغات ولهجات عديدة خلافاً للمروية، فكانت للبعة بشرق السودان لغتهم وهم من رعايا الدولة المروية، ثم كان النوبيون وغيرهم من القبائل الأخرى لهم لغاتهم الخاصة، وكانوا جميعاً يعيشون مع المرويين ويختلطون بهم في مناطق المملكة المروية المترامية الأطراف كما هو جلي من المدونات والرسومات وغيرها (الحاكم 1990م: 52-53).

كتب المرويون بإستخدام ثلاثة وعشرين رمزا مختزلاً، إثنين وعشرين منها ترجع إلى أصول فرعونية مصرية متأخرة (ديموطيقية وهيراطيقية) في حين أن واحداً منها فقط لم يعرف له أصل مصري لا تأكيداً ولا ترجيحاً. وثمة إشارة هنا، وهي أنه رغم إعتداد الكتابة المروية علي الرموز المصرية، فإن طريقة الكتابة لهذه اللغة مخالفة تماماً طريقة الكتابة المصرية. ولعل أبرز أوجه الخلاف تتمثل أولاً: في أن الكتابة المصرية الهيروغليفية (بخطيها الهيراطيقي والديموطيقي) تستخدم مئات الرموز، إضافة إلى أربعة وعشرين حرفاً هجائياً والأرقام في حين أن الكتابة المروية تستخدم ثلاثة وعشرين رمزا فقط، تكتب بها هجائياً إضافة إلى الفاصلة بين الكلمات. ثانياً: بينما للكتابة المصرية عدد هائل من الرموز متعددة الأصوات (ثنائي وثلاثي) فإن بالكتابة المروية رمزين فقط، ثالثاً: تخلو الكتابة المصرية من الحروف المتحركة، تظهر الكتابة المروية ثلاثة حروف متحركة تقابل

رموزها (o) (e) - (I) باللاتينية (أنظر شكل:2). ورابعا: نلاحظ في توجيه الرموز في الكتابة أن اللغة الهيروغليفية المصرية توجه رموزها نحو بداية السطر ، وإرتكازاً علي ذلك تبدأ القراءة من الجهة التي توجه نحوها الرموز .ومن ناحية أخرى ، فإن الرموز في الكتابة المروية توجه إتجاهها عكسيا بحيث تكون نحو نهاية السطر ،وعلية تكون القراءة من الجهة التي توليها الرموز ظهورها.أما نقطة الاتفاق الوحيدة بين الخطين الهيروغليفي والمروى المختزل فهي أن الكتابة في كليهما تبدأ من اليمين إلى اليسار (عبدالله 1986م: 123-124). وإختلف الباحثون حول السلالة اللغوية للأبجدية المروية، فهناك من يزعم بانتماء هذه اللغة إلى أصل سامي -حامي .وهذا الرأي نادي به رتشارد لبسيوس R. Lepsius -وكارل ماينهوف C. Meinhoff -وهوغوشوخت H. Schuchardt -وارنست تزيلارتز E. Zyhlarz -وعارض هذا الاتجاه بشده فريتز هينتز F. Hintze -واستبعده تماماً عبد الله (1986م: 64-65) وهنالك من يقول بإفريقية هذه اللغة وبالأصل السوداني الشرقي -Eastern-- Sudanese للغة المروية ويزعم أنها أم اللغة النوبية القديمة .وجدير بالتنويه أن مصنف اللغات السودانية الشرقية مصنف واسع يضم فيما يضم من الأسر اللغوية اللغات النيلية بجنوب السودان واللغات النوبية الصحراوية والنيلية ولغات بكردفان (جبال النوبة) ودارفور وتشاد.ومن أنصار هذا الرأي رتشارد لبسيوس أيضاً، وهانيرش بروكش H. Brugsch -وبروس تريقر B. Trigger -وغيرهم) أنظر المرجع نفسه: 66). وهكذا نلاحظ أن تيار أفريقية اللغة المروية يجد صدي طيباً عند بعض علماء الآثار .ورغم أن عبد القادر محمود عبد الله -إختصاصي اللغات القديمة -يعارض هذا الرأي القائل بصراحة النسب الأفريقي للغة المروية لخلوها من أي سمات سامية أو هندو-أوروبية في صفاتها وخصائصها، إلا أنه يري من الأفضل أن نعرف المزيد عن هذه اللغة واللغات الأفريقية قبل تحديد الأسرة اللغوية التي تنتمي إليها خشية أن يؤدي التحديد المبكر لأسرتها اللغوية إلى عماء بصيرتنا عن كثير من خصائصها الحقيقية (المرجع نفسه: 65). ويجدر التنبيه إلى أن اللغة المروية قد ارتبطت بالباطل والسلطة المركزية لفترة طويلة، فعندما ضعفت الدولة المروية وسقطت (350 م) فقدت هذه اللغة مكانتها الرسمية ومن ثم تلاشت نهائياً وحلت محلها أشكال لغوية أخرى. وغدا الوضع اللغوي أكثر تعقيدا عند ظهور الممالك النوبية -المسيحية الثلاث :نوباتيا والمقرة وعلوة ، حيث لم تكن اللغة الرسمية واضحة. وقد رفدتنا المكتشفات الأثرية بمخطوطات ووثائق شملت مختلف مناحي الحياة بلغات متعددة منها الإغريقية والقبطية والنوبية القديمة والعربية (الحاكم 1990م: 57-58).

خاتمة:

ما تم تبينه آنفاً ما هو إلا غيض من فيض المعلومات التي تذخر بها الأدبيات الأثرية عن إنجازات السودان الحضارية ، الفكرية والتقنية. ولا ريب أن السودان القديم (كوش) كان أحد القوى الإقليمية في أفريقيا والشرق الأدنى التي لعبت دوراً رئيسياً في دفع عجلة التطور الإنساني قدما نحو الأمام سواء في المجال الصناعي (التقني) أو العلمي أو السياسي .وتمكن قدماء السودانيون

من إبتكار تقنيات جديدة (صناعة الفخار) كما استوعبوا العديد من إنجازات الحضارات المعروفة لديهم أبرزها الكتابة الأبجدية وصناعة الحديد، إلا أنهم قاموا بتكييفها لتتنسق مع مزاجهم وتلبي مطالبهم. لذا يمكننا القول إنهم كانوا مستوعبين أكثر من كونهم مقلدين لصيغ الحضارات الوافدة إليهم ، فنخلوها وتمثلوا منجزاتها بل وأضافوا إليها إبداعات هامة ، فكانوا بذلك حداة ريادة فكرية وعلمية أُمّاط اللثام عنها إرث حضاري متفرد كشفت عنه التنقيبات الأثرية والسجلات التاريخية.

الهوامش:

- (1) الحاكم ، أحمد محمد على ، 1990 هوية السودان الثقافية : منظور تاريخي. دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم .
- (2) الحاكم ، أحمد محمد على وبونيه ، شارلس 1997: كرمة مملكة النوبة :تراث أفريقي من عهد الفراعنة ، الخرطوم ، شركة دار الخرطوم للطباعة والنشر (ص 222-221).
- (3) بكر ، محمد إبراهيم 1971. تاريخ السودان القديم ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، (ص 106-103).
- (4) خ4. خبير ، عبد الرحيم محمد 2000 : السودان القديم: بداية صناعة الحديد في أفريقيا. مجلة أدوماتو، العدد الأول (السعودية) (ص43).
- (5) خ5. خبير ، عبد الرحيم محمد 2005:المنجزات الفكرية والتقنية للحضارة السودانية، مجلة جامعة جوبا للآداب والعلوم العدد الرابع، يوليو (ص22-8).
- (6) ع6. عبد الله، عبد القادر محمود: 1986. اللغة المروية. الجزء الأول ، الرياض ، جامعة الملك سعود (ص -149150).
- (7) Adams, W. (1986). *Ceramic Industries of Medieval Nubia*. Part II . The University of Kentucky Press 473: -524.
- (8) Chlodnicki, M. 2015. *Archaeology of the Sudan*. Poznan.
- (9) Arkell, A.J. (1961). *A History of the Sudan From the Earliest Times to 1821*. London.
- (10) Kawato, M. 1993. 'Preliminary Survey of Aydhhab and Badi sites'. *Kush* 16: 203-224.
- (11) Khabir, A.M. (1981). *Neolithic Ceramics in the Sudan with Special Reference to Sarurab*. Unpublished M.A. thesis , University of Khartoum.

(12) Khabir, A.M. (1985). 'A note on the Neolithic site at Sarurab Area , Khartoum Province'. *Nyame Akuma* 26: 40.

Khabir, A.M. (1987). 'New Radiocarbon Dates for Sarurab2 and the Age of the Early Khartoum Tradition' *Current Anthropology* 28, 3 : 377-380.

14.Sayce, A.H. 1912.' *Excavations at Meroe-* part 11. Historical Results'

Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology6: 53-65.

15.Sadig,A.M.2012.'Chronology and Cultural Development of the Sudanese Neolithic'.*Beitrage zur Sudanforschung*11 :137-184.

16.Shinnie, P.L. 1971 ' The Sudan. In: The African Iron Age. P.L. Shinnie (ed.) Clarendon Press. Oxford :89-107.

17.Shinnie,P.L and F.J.Kense 1982.'Meroitic Iron Working'.*Meroitica*6:17-28.

18.Tylecote, R.F. (1982). 'Metal Working at Meroe, Sudan'.*Meroitica*6:29-42.

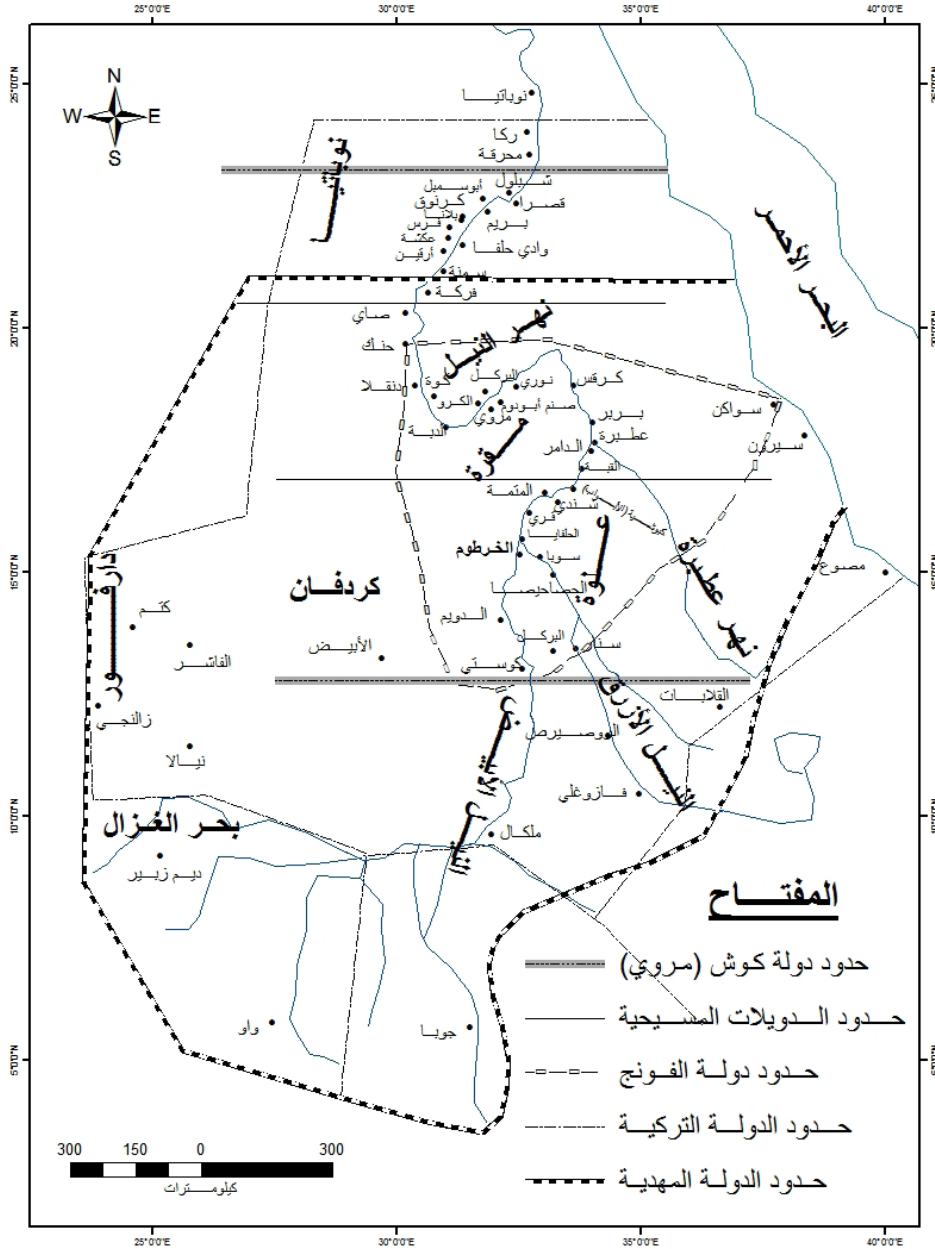
19.Wainwright, G.A.(1945). ' Iron in the Napatan and Meroitic ages'. **Sudan Notes and Records** 26:5-35.

20. Wendorf, F. and R.Schild (1984). *Cattle-Keepers of Eastern Sahara: The Neolithic of Bir Kiseiba*: Dallas, Texas: 140.

21.Mohamed,A.A and Anderson,J.R.2013.Highlights From The Sudan National Museum. London.

قائمة الاشكال واللوحات :

الاشكال



شكل : (1) الخارطة .

a		sr	h		h
e		s	h		3
o		/	s		///
i		4	s		3
y		///	k		3
w		3	q		13
b		1	t		7
p		2	te		14
m		3	to		4
n		12	d (z)		7
n̄ _(ni)		8	:	نقط للفصل بين	
r		w	:	الكلمات	
l		4			

شكل (2) : حروف الكتابة المروية : (الهيروغليفية والمختزلة)

(المصدر : خير 2005م)

● اللوحات :



لوحة (1) كسر فخار من حضارة الخرطوم الباكرا (اقليم الخرطوم)
(تصوير الباحث)



لوحة (2) كسر فخار من حضارة العصر الحجري الحديث (اقليم الخرطوم)
(تصوير الباحث)



لوحة (3) اواني فخارية : مملكة كرمة
(After Wildung et al 1998)



لوحة (4) اواني فخارية مملكة "نبته مروي"
(After Wildung et al 1998)



لوحة (5) : اواني فخارية : العصر المسيحي
(After Chlodnicki et al 2015)



لوحة (6) إناء فخاري العصر الاسلامي (دولة الفونج)
(After Mohamed and Anderson 2013)



لوحة (7) : نفايات الحديد - مملكة مروى (البجراوية)
(After Arkell 1961)



لوحة (8) : فرن لصهر الحديد - مملكة مروى (البجراوية)
(المصدر: خير 2000م)